على وظايف من ختم القرآن ومجالسة ارباب القلوب والتدريس لطلبة العلم واداء الصلوة والصيام وسايرالعبادات الى ان انتقل الى رحمة الله ورضوانه طيب الثناء على منزلة من نجم التناء لا يكرهه الا حاسد او زنديق ولا يسومه بسوء الا خائف حائد عن سواء الطريق وكانت وفاته بطوس في يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة قال هو قدس سره في بعض مؤلفاته كنت في بدايتي مشتاقا لاحوال العالمين ومقامات العارفين حتى حظيت بالواردات فرأيت الله تعالى في المنام فقال لي يا ابا حامد قلت او الشيطان يكلمني قال لا بل انا الله المحيط بجهاتك الست ثم قال يا ابا حامد ذر اساطيرك وعليك بصحبة اقوام جعلتهم في ارضي محل نظري وهم اقوام باعوا الدارين بحبتي فقلت بعزتك الا اذقتني برد حسن الظن بهم فقال قد فعلت ذلك والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا فاخرج منها مختارا قبل ان تخرج منها صاغرا فقد امضيت عليك فقرا من انوار قدسي فقم وقال قال فاستيقظت فرحا مسرورا وجئت الى شيخي يوسف النساج فقصصت عليه المنام فتبسم وقال يا ابا حامد هذا الواحنا في البداية فحيثما ابلى ان صحبتي ساكحل بصر بصيرتك بانمد التاييد حتى ترى العرش ومن حوله ثم الارضى بذلك حتى تشاهد ما الا تدركه الابصار فتصفو من كدر طبيعتك وترتقي على طور عقلك وتسمع الخطاب من الله تعالى كما كان لموسى عليه السلام انا الله رب العالمين انتهى ثم توجه الى القدس الشريف فاجتهد في العبادة وفي ياسرة المشاهد والمواضع المعظمة بتلك الارض المقدسة منفردا عن الناس مختفيا نفسه عنهم ما كان يعرفه الا خادم كان معه فكان على ذلك مدة ثم اشتهر امره فعرفوه واعتقدوه ثم انه قصد مصر واقام بالاسكندرية مدة ثم عاد الى الشام وآخذ في تعليف احياء علوم الدين والكتب المختصرة مثل الاصول الاربعين وجواهر القرآن وغير ذلك من الرسائل وهو مكب على مجاهدة النفس والعزلة عن الخلق والتبتل الى الله تعالى وترك الاجتماع بالناس الا في الجمعة والجماعة ثم عاد الى وطنه لازما بيته مشتغلا بالتفكر والتاليف ملازما الوقت متابرا على الذكر والاوراد الى ان مضى على ذلك زمان ظهرت فيه تصانيفه وفشت كتبه حتى انتهت المملكة والوزارة الى فخر الملك جمال الشهداء فزينت هذا الرجل بحشمته ودولته ونفق سوق الفضل ايام ولايته وقد كان سمع بفضل الامام الغزالي ونباهة سيرته فاستدعاه وجاء بعالي نيسابور وولاه تدريس المدرسة النظامية بها فانتفع به ثم عاد الى بغداد ثم الى نيسابور والزم بتدريس النظامية بعد معاودات باسباب ياتي ذكرها في كلامه ثم ترك ذلك كله واقام بوطنه واتخذ خانقاه للصوفية

ومدرسة للمشتغلين بالعلوم الشرعية في جواره ووزع اوقاته على وظايف الدين من ختم القرآن ومجالسة اهل القلوب هذا وقد سئل هو قدس سره عن السبب الذي صرفه عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة وما الذي دعاه الى معاودته بنيسابور بعد طول المدة فقال مجيبا عن ذلك بعد تمهيد مقدمات تقدمت له هناك انه قد حصل معي من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صفي العلوم الشرعية والعقلية ايمان يعني بالله تعالى وباليوم الآخر فهذه الاصول الثلثة من الايمان كانت قد رسخت في نفسي وكان قد ظهر عندي انه لمطمع في سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى وان راس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا والتجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاقبال بكنه الهمة على الله عز وجل وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال وقطع الآمال والهرب من الشواغل والعلايق ومن مخالطة الخلايق قال ثم لاحظت احوالي فاذا انا منغمس في العلايق وقد احدقت بي من كل جانب ولاحظت اعمالي واحسنها التدريس والتعليم واذا انا مقبل فيها على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة ثم تفكرت في نيتي في التدريس فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى بل مشوبة بطلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت اني على شفا جرف الهلاك واني قد اشتغلت على النار ان لم اشتغل بتلافي الاحوال فلم ازل اتفكر فيه مدة وانا بعد على مقام الاختيار ثم عزمي على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الاحوال يوما واحلّ العزم يوما واقدم فيه رجلا واؤخر عنه اخرى ولا اقدم قلبي رغبة في الآخرة بكرة الا وتحمل عليها جند الشهوة حملة فينفرها عاشية فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها الى المقام ومنادي الايمان ينادي الرحيل فلم يبق من العمر الا القليل وبين يديك السفر الطويل وجميع ما انت فيه من العلم رياء وتخييل فاذن لم تستعد الآن الى الآخرة فمتى تستعد وان لم تقطع الآن هذه العلايق فمتى تقطع فعند ذلك تنبعث الرغبة وتنهزم العزم على الهرب والفرار ثم يعود الشيطان الغرور الغدار ويقول هذه حالة عارضة اياك ان تطاوعها فانها سريعة الزوال فاذا اذعنت لها وتركت هذا الجاه الطويل العريض والشان المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص والامر المسلم القاني عن منازعة الخصوم ربما التفت اليك نفسك فلا يتيسر لك المعاودة فلم ازل اتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريبا من ستة اشهر آخر ما رجب سنة ست وثمانين واربعمائة وفي هذا الشهر تجاوز الامر حدّ الاختيار الى الاضطرار اذ قفل الله تعالى على لساني حتى اعتقل عن التدريس فلنت اجاهد

جامعة الرياض
المكتبة المركزية - قسم المخطوطات

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)